2007/003-0001-2

السفير

إلى عدنان رسالة أخرى علها تصل

ظهر يوم ٢٤ أيلول ١٩٨٢ خطفوك.. ربع قرن، ٢٥ سنة، يوبيل فضي..؟ كلمة تصح في المناسبات السعيدة.. هل يجوز لي استعمالها في هذه الذكرى؟؟

المناسبة كادت أن تمر دون ميل للكتابة لولا شجرة الـ «بوغينفيلييه»..

شجرة أنبتها في حوض على شرفة غرفتي. الرغبة مزدوجة: أولها إعجاب بها، بأزهار لها كلما تفتحت، أشعت لي فرحا، ثم إفساح في المجال أمامي للإطلالة على الخارج، مقابل عجزه (الخارج) عن متابعة تفاصيل يومياتي، علاقتي بالشرفة وباقي الأشياء التي تشاركني هذا الجزء من البيت.

وحدهن زهرات الـ «بوغينفيلييه» يقتحمن حميميتي من دون استئذان.. وحدهن لا يخدشن حيائي..

في عمري السابق، البحر هو من كان يقتحمني من شرفة غرفتي. لكن طباع الوالدين ـ اللذين كنت أشاركهما السكن ـ كانت تحد من حريته، تربكه، تحول دون انسيابه الكلي..

بالإيماء، كان يغمرني، يغبطني، يضرب لي الموعد تلو الآخر..

تلاقينا.. تحاببنا.. تخاصمنا.. افترقنا، لكن الوصل لم ينقطع بيننا.. تغير العنوان لم يقطع التواصل، رسائل تجوب الأمكنة، تشحن شوقا، تحطه، تسأل موعداً جديدا..

وحده البحر كان يقتحم وحدتي من دون استئذان.. وحده كان يلامس وجهي، يداعب شعري، يدغدغ مني المشاعر.. يضاجعني في الخفاء..

بين عمري الأول والثاني، كنت تملأ ساعاتي وأيامي.. ملأت حياتي..

لكنك خطفت، أيضا من دون استئذان.. من دون أن تدربني على التعامل مع فراغ آت.. فراغ فرض علي ملؤه، بدون أي دليل يسهل المهمة.

ما أصعب ملء ما نجهل.. ما نخشى.. ما نكره.. ما لم نعتد عليه..

وحده، كاد هذا الفراغ أن يستأثر بي، يجالس وحشتي، يضاعف مصيبتي، يغذي ألمي، يصفق لضعفي وينتشي..

ما أشرسه.. كاد أن يفتك بي، أن يدمرني..

تسألني بعد انقضاء ربع قرن من الفراق القسري عن أحوالي، عن أحوال الأولاد، عن البلاد والعباد..!!

سأبدأ الإجابة من الآخر. البلاد تأكل فراغاً، تشرب فراغاً، تنام وتصحو على فراغ.. كأنها والقيمين عليها في حالة تماه مطلق معه، في حالة عشق له..

تحت رايته، يخلخلون استقرار الناس، يجرونهم إلى شفير المهوار.. باسمه، يتقاذفون بأعصاب هؤلاء، يعبثون بأرزاقهم.. بأشلائهم..

فجأة يزعقون بملء أصواتهم حذار.. حذار من الفراغ.. انه الطريق إلى الهلاك..

بدوره، بات البلد في عداد المخطوفين...

الأولاد.. ما عادوا أولاداً.. أظن أنهم يحلمون بغد أحلى..

لقد انكبوا، بالرغم من المشاكل والصعوبات، على ملء كم من الفراغات، لا سيما فراغ غيابك.. حاكوا منه حكايات عديدة، من المؤكد أنهم سيروونها لأولادهم مستقبلا.. إن تسنى لهؤلاء أن يأتوا إلى هذه الدنيا..

أنا.. بانت السنون على مظهري، أغشيها بتلوين ما ابيض من شعري. لكني ما زلت متربصة بآلة الزمن.. أرصد حركة الناس، ذبذبات أصواتهم.. أحلم بعدالة ما تهبط على وجه الأرض.. لا أعرف إن كانت ستأتي ذات يوم ..

ما أعرفه، أن شجرتي فجأة أزهرت، بعد طول إحجام وتمنع ظننتهما أبديين، لا سيما أن مثيلاتها التي أصادف، تفتحت أزهارها منذ أشهر، ثم أغلقت في حالة ذبول واسترخاء استعداداً لموسم قادم..!! كان ذلك يوم الأحد الفائت، عشية الذكرى الـ ٢٥ لاختطافك..!!

لا أخفي كم أثارت غيرتي يومذاك.. لا أخفي مدى انشراحي وشدة تفاؤلي اليوم..

لقد أزهرت شجرة الـ «البوغينفيلييه» على شرفة غرفتي، وإن بعد طول انتظار، وخارج أوقات الدوام المألوف..

عفوا عدنان، لقد نسيت أن أذكر لون الزهرات، انه أحمر «خاص»، لا يشبه الأحمر المعروف أو أيا من مشتقاته...

وداد حلواني

* عدنان حلواني واحد من ١٧٠٠٠ مخطوف ومفقود في لبنان، بدءاً من العام ١٩٧٥، ما زال مصيرهم مجهولا حتى اليوم.